استجداء شرارة لإشعال حريق كبير

فى أول ظهور لحلمى عبد الباقى بعد النكسة توافق أن جاء ذلك مع نشر أول حديث صحفى لجمال عبد الناصر مع مجلة أمريكية، وقد بدا لمن رأوه بهذه السهرة الربيعية بروف فايز فودة أن حلمى عبد الباقى قد خرج من قوقعة اليأس، فعرفوا أن طاووسه عبد الناصر قد «بدأ ينفض عن ريشه الزاهى بعض ما علق به من وحل الهزيمة». هكذا قال فايز فودة الشامت فى عبد الناصر لجاره فى الجلسة السيد النحال، ثم طفقا يستمعان لما ينقله حلمى عبد الباقى من أقوال وتصريحات جاءت على لسان الزعيم للصحفى «وليام اتوود» رئيس تحرير مجلة «لوك» الأمريكية بعد عشرة أشهر من الهزيمة.. وقد ألمح حلمى للحضور اعتقاده أن هذا الصحفى يتبنى رأى دولته وهو يطرح أسئلته الملونة بالدهاء ودس السم فى العسل، وقد بدا ذلك من سؤاله للرئيس «أليست الحرب ضد الفقر أكثر أهمية من الحرب ضد إسرائيل؟..» فلم يخالفه عبد الناصر الرأى، ومع ذلك نبهه بأهمية الدفاع الشرعى عن النفس ولفت نظره أن: «التهديد الخارجى يزيد من صعوبة مهمتنا ونحن نعمل على محاربة الفقر، فصرنا نبنى بيد، ونحمل السلاح بالأخرى» ثم يسأله الصحفى فى موضع آخر إن كان نادمًا أن تولى زمام السلطة لشعب غارق فى هذا الكم من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وقد خالفه الرئيس هذا الرأى رغم إحساسه بالأسى على ما حدث له من فقدان لحياته الخاصة الصغيرة بعدما صار يعيش فى خندق لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم، لكن عزاءه فى ذلك تمثل فى أن الثورة هيأت فرص العمل للجميع، وارتفعت بميزانية البلد من ٢٠٠ مليون إلى ١٢٠٠ مليون فى العام، وأقامت مدارس ومستشفيات وعمارات لم تكن موجودة من قبل، ناهيك عن المشروعات الصغيرة الأخرى.

وبدا أن هذا النوع من العرض لإنجازات الثورة لم يلق استجابة لدى فايز فودة الذى سارع بتحويل دفته إلى محور آخر يمكنه فيه حصار عبد الناصر وحلمى عبد الباقى معًا، فسأله مسرعًا:

ـ «وماذا قال له عن حربنا مع إسرائيل وهزيمتنا الأخيرة؟»

وأفهمه حلمى أن الصحفى الأمريكى عرج على هذا الشأن فى نطاق أن السلام بين إسرائيل والعرب سيكون فى صالح العرب، وأن الإخاء يجب أن يسود العالم بما فى ذلك الشرق الأوسط وأن الحقيقة يجب أن تسود هى الأخرى..

وباشتياق ظاهر طلب حشمت بركات التعرف على ردود عبد الناصر على هذا السؤال المطعم بالخبث.. فطمأنه حلمى أن الرئيس التفت إلى هذا المغزى وأفهم الصحفى أن الحقيقة يجب أن تسبق الإخاء، والإخاء بين الطرفين معناه التحرر من الخوف والتهديد.. فهل من الممكن نسيان حقيقة اللاجئين الفلسطينيين؟.. وهل هذا إخاء..؟ ثم سأل الصحفى سؤالًا مباشرًا: هل يمكنك المطالبة بتحقيق إخاء مع قوات أجنبية تحتل جزءًا من أرض الولايات المتحدة؟

وفى الروف جاءته الفرصة أن يختلى بحلمى عبد الباقى، فمال السيد عليه هامسًا:

ـ «أنا مدين لك بشكر جزيل لاهتمامك بخميسة زوجتى»

تطلّع إليه حلمى عبد الباقى مليًّا، ثم قال له:

ـ «أى اهتمام تقصده بسيدة ضحت بالعلم مقابل المال؟»

ابتسم السيد وهو يعدّل له هذا المفهوم:

ـ «هى لم تضحِ بالعلم، ولم تهتم بالمال، كل ما هناك أنها تقوم بتنفيذ أوامرى»

ـ «أوامرك..؟»

ـ «لماذا تتعجب من قولى؟ زوجة تنصاع لمطالب زوجها.. ماذا فى ذلك؟»

وضع حلمى عبد الباقى يده بالسرعة الكافية على الهدف المنشود من هذا الخطاب المستفز الذى يشير إلى تضخم الأنا عند زوج يحمل دبلوم الصنايع وهو يتحدث عن زوجته المتفوقة فى دراسة الحقوق. فيقول إنها تنفذ أوامره بانصياع، ولأنه كان على وشك

الانصراف كعادته قبل إشعال واشتعال الحشيش، فقد أنهى هذا الحوار بجملة ظلت تشغل السيد النحال طوال باقى السهرة حتى ذهب إلى منزله..

وفى المنزل سألها ولم يكن دخان الحشيش قد طار من عقله:

ـ «هل تقابلين أستاذك الجليل حلمى عبد الباقى؟»

فأجابته بهدوء:

ـ «أحيانًا»

ـ «أين ومتى تقومين بذلك؟»

ظلت على هدوئها وهى تجيبه:

ـ «فى الكلية وأنا أقابل بعض صديقاتى.»

ـ «وهل تتحدثين معه حديثًا خاصًّا أمام زميلاتك أيضًا..؟»

ـ «لم يحدث أن تحدثنا معه حديثًا خاصًّا..»

ـ «إذن، فكيف عرف أننى لم أوفِ بوعدى معك ولم أسمح لك بالعمل بالمحاماة بعد نصف عام من استقرار العمل فى المحل؟»

تمهلت قليلًا قبل أن ترد: «ليس من العيب أن اتحدث عن تطلعاتى أمام صديقتى المهندسة سوسن عبد الباقى، فهل هذا يسوءك؟»

ـ «يسوء أو لا يسوء، ليس هذا من شأنك..»

ـ «أو ليس من شأنى أيضًا أن أظل معصوبة العينين وغافلة عن رجل أبعد زوجته عنه وقرب آنسة جميلة إليه لتجمعهما غرفة مكتب واحدة، أأنت تستاء من جملة عادية، وأنا لا يحق لى الاستياء من هذه العلاقة المعوجة بينك وبين فوزية؟»

ـ «إنها علاقة عمل..»

ـ «إذن، فاستبدلها بموظف وأخل سبيلها»

ـ «أأطردها ؟»

ـ «إن لم تفعل ذلك بنفسك.. سأحضر بنقسى وأطردها..»

وأسقط فى يده: «هذه هى خميسة القوية الهادئة التى لم تهتز لاستفزازى المقصود لها،

وقلبت المائدة على رأسى.. واصطادتنى قبل أن أصيدها..» وبعد لحظات صمت قال لها:

ـ «إذن فاهدئى، وعودى إلى عقلك، ولا تضعى أسرارنا فى أفواه الناس»

ودخل لينام..

وظلت ساهرة..

نام هو وقد قرر أمرًا..

ولم تنم هى؛ لأنها تفكر فى أمر آخر..

* * *

لاحظت فوزية أنه كان أنيقًا فى هذا اليوم على غير العادة ، وأنه يلاحقها أكثر من ذى قبل، وأنه يتخلص مسرعًا من أىّ قادم إليه من العمال لطلب ما حتى يتفرغ لمواصلة بعض حكاياته التى يسليها بها.. وفجأة قال لها بشكل لا يوحى أنه يأخذ رأيها:

ـ «سأرافقك الليلة إلى منزلك»

ـ «لم تزرنا منذ وقت بعيد، فأهلًا بك»

ـ «لكنك لم تسأليني: لماذا؟»

ـ «سؤالى هو: لماذا تأخرت هكذا؟»

ظن أنها فهمت مغزى زيارته فأعجبته فراستها، وقال لها:

ـ «كان يجب أن أتاخر حتى أرتب أمورًا كثيرة»

ـ «أى أمور تعطلك عن شلة الأنس الذين يسألون عنك»

وفورًا سحب إعجابه البكر بفراسة ليست موجودة عندها، واختار التوضيح:

ـ «أنا ذاهب هذه المرة إلى والدك لأخطبك منه»

تهلل وجهها، ثم ما لبث أن اكتسى بشىء لم يفهمه، ثم قالت له:

ـ «يمكننى أن أبلغك برأيه من الآن..»

ـ «أخشى إن يكون رأيه هو الرفض، حديثك يوحى بذلك»

ـ «سيقول لك إن ابنتى لا تدخل على ضره.. هو لا يرفضك، بل يرفض ضرتى»

ـ «خميسة»

ـ «هى أو غيرها.. المهم ألا أكون الزوجة الثانية..»

ـ «يبدو أن هذا يتمشى مع رأيك»

ـ «ويتمشى مع حالتى»

ـ «أى حالة»

ـ «حالة فتاة ساذجة ضحت بحبها الأول، ثم بعدة عرسان يطرقون بابها بإلحاح، وانتظرت فارسًا هى تثق أنه يحبها، وطال انتظارها حتى كاد أن يفوتها قطار الزواج وما زالت فى انتظاره وهى تراه يلهث خلف قطار المال، فتاة تركت مهنتها.. وخاصمت أهلها.. وعملت خادمة لسيدتين فى مقام جدتيه.. كل هذه تضحيات إن لم يضعها أبى فى الميزان، فيجب أن أضعها أنا»

ظل يتأملها وعلى فمه ابتسامة إعجاب، ثم تذكر خميسة:

ـ «هل تعرفين قصتى كاملة مع خميسة؟»

ـ «أعرف أنك خلقت من الفسيخ شربات»

ـ «ليس إلى هذه الدرجة»

ـ «لكنها لا تستحقك»

ـ «إذن، فأنت تغارين منها»

ـ «كنت سوف أغار منها لو أنجبت لك الولد»

ـ «اتفقنا أن نؤجل الإنجاب لما بعد تخرجها»

ـ «هذا إذا هى قررت ذلك، لكنها لم تفعل»

ـ «يبدو أنك تحاطين عليًا بشىء ما»

ـ «أعرف أنها تستجيب لنصائح أبيها»

ـ «هى تفعل عكس ما تقولينه، أبوها يحثها على أن تعود إلى البلد بدونى، رفضت، قاطعها، لم يسمح لها أن تزوره فى البلد بعد خروجه من السجن»

ـ «وهل كان سيفعل ذلك إذا أنجبتما؟»

ـ «لا أدرى.. ماذا تقصدين؟»

ـ «عندما علم بزواجكما نصحها ألا تنجب منك»

ـ «هل أمير أبلغك بذلك؟»

ـ «لا تهتم بمصدر المعلومة، اهتم بمدى صحتها..»

ـ «تقولين ذلك فى وقت صرت أقدرها فيه؛ لأنها لم تعبأ بأبيها الذى وضعنى فى مكان العدو الأول له»

ـ «هى لم تبعه لتشتريك.. هى تشترى مستقبلها»

ـ «هى وضعتنى مع مستقبلها فى صفقة واحدة»

ـ «أنا التى أفعل ذلك، لكنها بشهادتها ترنو إلى مدار آخر فى فلك أحلامها»

ـ «لقد أحبطت لها هذا الهدف»

ـ «تلك هى حساباتك، أما هى فلها حسابات أخرى»

ـ «إنها نصف حساباتى، أنت النصف الآخر، فليس هناك مانع أن أكون زوجًا لامرأتين»

ـ «لست مستعدة»

ـ «أوترفضيننى؟»

ـ «لست مستعدة أن أهجر أهلى بعقوق كالذى أنجزته خميسة بإمعان تحسد عليه»

ـ «أراك تعرجين على ذنب أنا الآخر أنجزه ببراعة، وكأنك تخشين أن نصبح ثلاثة أشلاء مبتورة من جسد الوفاق العائلى، هذا النوع من الوفاق فكرة بال عليها الزمن»

ـ «أأنت الذى يقول ذلك وأمامك نموذج لأختين تمسك كلٌّ منهما بيد الأخرى لتبعدها عن الموت وتبث فيه الحياة؟ حكمت وبشاير..»

ـ «كيف حالهما؟»

ـ «حكمت تروى كل صباح حلمًا جديدًا يزورها فيه شقيقها الذى غرق فى بوغاز إسطنبول، وبشاير تروى عن الزوج الوحيد الذى أحبته من ثلاثة أزواج مروا بها.. هو النبيل الذى مات، والباقيان زوجان من الطغاة مازالا على قيد الحياة..»

ـ «أخشى أن يكون قد دنا أجلهما»

ـ «ليستا على ما يرام.. جدد لهما الدواء.. أو استدع طبيبًا آخر»

ـ «هل مارى تزورهما؟»

ـ «آخر زيارتين لم تكن أنت موجودًا»

ـ «هل تتحدث مارى عن خميسة أمامك؟»

ـ «أنا التى أستدرجها للحصول على أخبار صديقتها»

ـ «إذن، فمصدراك هما: أمير ومارى.. كيف تلتقين مع أمير؟»

ـ «على التليفون.. أنا الذى أطلبه وأنت؟»

ـ «لا أطارد أخباره، فما دام استغنى عنى إذن فهو بخير ويمضى فى طريقه»

ـ «لا يمضى فقط فى طريقه.. بل طوى طريقه ووضعه فى جيبه»

ابتسم السيد ابتسامة صفراء عبر عن عدم سعادته بما يسمعه، وتنهد بلا ارتياح، ثم عاد بها إلى بدء حديثهما:

ـ «حلّقت بى بعيدًا.. فهل أفهم من هذا أن مشوارى إلى والدك لا جدوى منه»

ـ «جدواه مرهونة بوصولك عنده كرجل مطلق، وإلا فلا تلمه أو تلومنى»

ـ «لا تحملى همًّا.. إنها معركتى»

* * *

وأمام صديقتها المهندسة سوسن عبد الباقى أفضت خميسة عفيفى بآمالها وهى تقف حائرة بين زوج طاغ، وأب مجروح، ومستقبل غامض ظنت أنه سينجلى بعد نيلها لشهادة الحقوق. ثم انتهت إلى أن طلبت منها أن يجدد شقيقها حلمى مبادرته بإلحاقها للعمل بمكتب المحاماة الذى رشحها عنده.

ـ «ومن الذى سيدير المحل؟»

ـ «سأجبره أن يعيد فوزية إلى المحل ويحررها من حضنه إنقاذًا لوقتى»

ـ «تقولين إنه عنود»

ـ «وسوف أكون أكثر عنادًا.. إنها معركتى»

* * *

وفيما بينهما كانت الأذن الرادارية لعاملة المحل البدينة رجاء تتنصت على محادثة عرفت أن طرفها الآخر على التليفون المهندسة سوسن عبد الباقى زبونة المحل، وأن المقابلة التى تحددها غدًا بمحل جروبى سوف تكون بين سيدة المحل خميسة وهذا الرجل الذى اسمه حلمى عبد الباقى والذى ترى صورته فى مجلة تقرأها سيدتها أكثر من مرة فى اليوم الواحد.

وكان لابد لفوزية أن تثبت لفارسها المنتظر أن خميسة ـ بالفعل ـ لها حساباتها الأخرى. سارعت بتوجيهه إلى مكان اللقاء وفى وقته المحدد ليرى إلى أىّ حد هو مخطئ لظنه الساذج أن خميسة جعلته هو ومستقبلها فى حزمة واحدة..

ولم تدر فوزية سر هذا الهدوء الغارق فى الاستخفاف وقد كسا وجه السيد عكس ما توقعته.. وبكل هذا الهدوء عاد السيد إلى منزله مبكرًا على غير العادة ووجد نفسه وبلا قصد منه يزيد من جرعة لطفه الشديد مع زوجته وهما على مائدة العشاء، ثم تركها أمام التلفاز وخلا بنفسه مع كتاب فى غرفة النوم.. واكتشف أنه لم يكن يقرأ بقدر ما كان يتابع سيناريو يتشكل فى داخله لا يدرى كيف تنهمر عليه أحداثه.. وتذكر بعض ما سمعه من صديقه حشمت بركات من أحداث تقع فى كواليس الحكم والسياسة ولا تصل إلى أذان الناس. أحداث لا يبخل عليه بسردها شقيقه أشرف بركات، ومنها ما قاله له أخيرًا عن السبب الحقيقى لهزيمة يونيه الثقيلة، وهو سبب لو علمه الناس ما صدقوه ولازداد سخطهم على نظام وضع ثقته فى عبد الحكيم عامر وهو رجل موزع الخاطر والنفس بين مهامه الوطنية ومشاكله المنزلية، فمشاكله تفاقمت إثر إنجابه لمولود من زوجته الثانية وهى فنانة معروفة لم يعلن للناس زواجه منها. إلا أن هذه الزوجة التى وافقت أن يكون زواجهما سرًّا أبت أن تكون أمومتها سرًّا آخر. وأصرت على إعلان كلا السرين معًا الزواج والإنجاب.. ولكن لماذا يحتدم النقاش فى هذا الأمر، وتتناثر شظاياه فى هذا الصباح بالذات.. صباح ٥ يونيو ١٩٦٧.. وهو صباح بدأ بصياح بينهما وهو يرتدى زيه العسكرى كاملًا ليلحق بالطائرة التى ستنقله إلى جنوده فى الجبهة.. ثم هو صباح انتهى بصياح فى أجهزة اللاسلكى إلى الدفاعات الأرضية أن تكف عن مواجهة الغارات الإسرائيلية بسبب طيارة المشير العالقة فى السماء والتى تأخرت عن موعدها المحدد فى

الإقلاع. ولكن، لماذا تأخرت طائرة المشير..؟ وبالأحرى لماذا تأخر المشير..؟

ولم يجب أحد عن هذا السؤال بما فى ذلك المشير نفسه الذى لا يمكنه أن يحيل صاحب السؤال إلى زوجته التى تسببت فى تأخيره، ثم تأخره الذى تسبب فى إرباك القوات والدفاعات، ثم كل هذه التداعيات التى أربكت أمة بأسرها.

ويتأمل السيد النحال شرارة صغيرة أشعلت النار فى قرية ما فأحرقتها بأكملها .. أليست هى نفس الشرارة التى تشعل النار فى قلبه الآن..؟.. زوجته تتعامل من خلف ظهرة مع رجل بعينه.. فما نوع التعامل؟. ..لا يهم .. ولكن من هو هذا الرجل..؟ إنه هو من هو ، رجل قريب من جمال عبد الناصر وقريب من الناس.. رجل اسمه معروف.. ومادام معروفًا فإن هذه الشرارة إذا جعلها تمسك بملابسه فلن تشعل به النار قدر ما تصب الأضواء على خصمه «السيد النحال» زوج السيدة التى ضبطها تجالس عشيقها فى جروبى «أليست هذه فرصتى؟»

ثم يتذكر ماورواه له صديقه حشمت بركات من حادث عجيب وقع فى مملكة المشير عبد الحكيم عامر، وهو حادث مازال طى الكتمان ولم يصل خبره إلى الشعب، وقد لا يصل إلا بعد وقت طويل، عندما يسمح بتحريك السكاكين فى جثة المشير ورجاله.. ذلك أن أحد هؤلاء الرجال أثارت إعجابه فنانة تنتمى بالزواج لكاتب مشهور فقررأن يتزوجها، هكذا كانت أمنياتهم بلا حدود .. فما المانع أن ترغب فى الزواج من امرأة متزوجة ما دمت رجلًا من رجال المشير؟... وما أسهل الحل عندما نجبر هذا الزوج أن يقوم بتطليق زوجته، وهذا ما حدث مع الكاتب المسكين، لكنه لم يكن مسكينًا للنهاية حين تمكن من الوصول إلى مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وقدّم شكوى فضح فيها تصرفات رجال مكتب المشير وكيف خطف أحدهم زوجته.. وفتحت ملفات التحقيق..

ولم يعد السيد النحال يتذكر من هذا الحادث سوى النهاية المأساوية لهذا الزوج عندما نجا بحياته وهرب إلى لبنان اتقاء لبطش رجال المشير انتقامًا من شكواه لهم، وهنا قال النحال لنفسه:

ـ «إذن، فقد فضحهم عند الرئيس، ثم هرب، ما أشجعه من تصرف، ويالها من فرصة

أن أمسك بشرارتى المتاحة فأشعل منها حريقًا بطريقتى: رجل عبد الحكيم عامر قام بإجبار كاتب على تطليق زوجته. ورجل عبد الناصر يفعل نفس الشىء. الأول قبل النكسة والثانى بعدها.. فمتى تزول دولة الطغيان يا سيادة الرئيس؟»

ولما أطفأ نور الأباجورة لينام بعث إلى زوجته بهذا النداء:

ـ «خميسة.. تصبحى على خير»

* * *

وفى موعد الغداء تخفى فى نظارته السوداء، ووقف بعيدًا على الرصيف المقابل يراقب دخولها، وإلى أن قدما تباعًا ظل متمهلًا إلى حين تهدأ أعصابه ويهدآ فى جلستيهما.. تحرك بهدوء نحو كشك قريب واستخدم التليفون: «**رجاء.. اعطنى رقم بهيرة هانم بسرعة.. عندك فى دفتر التليفون.. بسرعة..**»

وراح يكتب الرقم..

وبعد قليل كانت بهيرة هانم تتلقى مكالمة من رجل لم يكشف عن نفسه، رجل يتحدث بوقاحة، وألم، وتهديد.

ـ «**أعرف أنك مثلى نائمة على أذنك ومخدوعة، واثقة فى زوجك لأنه كاتب كبير وثورى سابق، وأستاذ زائر بكليات الحقوق وكنت مثلك أثق فى زوجتى، بدأ الشك يساورنى، إلى أن عرفت من هو عشيقها.. هما الآن أمامى، يتناجيان بمحل جروبى طلعت حرب، لن أفاجئهما إلا بوجودك تحركى يا أستاذه.. قد أقتله.. وأقتلها..**»

ـ «**الخائن.. سأحضر حالاً..**»

وكانت هذه هى العبارة المقتضبة التى أطلقتها فى وجهه قبل أن تغلق الخط، وبعد نصف ساعة كان رواد محل جروبى فى هذا الوقت من الظهيرة يرفعون وجوههم عن أطباقهم وفناجينهم ليرقبوا حديثًا عاليًا بين رجلين وسيدة صغيرة أنيقة المظهر، فأشار زبون إلى أحد الرجلين قائلًا:

ـ «**أليس هذا هو حلمى عبد الباقى؟..**»

ثم يقول للآخر:

ـ «ماله هكذا يبدو متورطًا وهذا الشاب يعنفه وهو صامت»

ولم يمض طويل من الوقت حتى قدمت سيدة أخرى وجلست إلى المائدة الصاخبة بهدوء ثبت فيما بعد أنه هدوء ما قبل العاصفة.. وما إن تطاير صياحها هى الأخرى بعد قليل حتى فرغ الزبائن مما فى أيديهم وانصرفوا إلى مراقبة وقائع حادث صاخب أبطاله أربعة أطراف لمقص واحد تحركت النقمة.. زوجتان، وزوجان.. طرفان، كل طرف يمثل ذراعًا فى المقص أوله مقبض وآخره قاطع، وبدا من الرجلين أن كلًّا منهما يدافع عن كرامته بطريقته، وأن الأستاذ الوقور أخذ يتخلى عن وقاره ويكيل للشاب بعض اللعنات والشتائم ، والشاب الثائر يرد عليه بمثلها، كما بدا أن شتائم الأستاذ انقلبت إلى فعل فدفع الشاب بكلتا يديه حتى كاد أن يسقط، كما بدا أن الشاب توقف عن الإتيان برد مماثل نحو غريمه لكنه أتى بأعنف منه نحو زوجته فصفعها، وجاء ردها بأسرع مما توقع عندما فوجئ بكوب الماء يغمر وجهه وقول قاطع تطلقة قبل أن تنصرف:

ـ «أيها الساقط.. هل تظن أن كل الناس مثلك؟»

وكان للسيدة الثانية موقفها المكمل للأخرى التى انصرفت، فمن خلال غضبها وجهت لرجلها قولًا كان له أثره عند السيد النحال فى تبرير هجمته المقصودة، فما معنى قولها؟

ـ «الآن فهمت سرّ اهتمامك بها ومديحك لها.. فلتخجل من نفسك..»

وانصرفت بكل ما بها من توتر دون أن تلتفت حولها.

وعاد المكان إلى هدوئه الذى كان عليه عندما أسرع حلمى عبد الباقى للحاق بزوجته، وجلس السيد النحال فى مكانه لائذًا بالصمت، ثم أشعل سيجارة راح يدخنها بكل هدوء.